❖ **مفهوم الفن و تاريخ الفن:**

الفن هو لون من الوان الثقافة الانسانية وهو دليل على الابداع واداة تعبير عن الذات الانسانية واحتياجاته، و ان دراسة تاريخ الفن ART HISTORY علم حديث كان قد بدا في الظهور منذ عام ١٨٤٤ في المانيا تحت اسم تاريخ الفن وكان اول عالم الماني قام بتدريسة هو ج . ف فاجن (G.F.WAAGEN) ثم انتقل الاهتمام بة الى بريطانيا ، ولكن متاخرا بعض الشيء اذ كان اول تدريس له في جامعة لندن عام ١٩٣٢ هذا بالرغم من ان جامعة انجليزية اخرى هي جامعة ادنبرة EDINBURGH كانت قد سبقت الجامعات البريطانية جميعا الى ادخال تلك المادة بين العلوم التي تقوم بتدريسها الى الطلبة من قبل ذلك بكثير أي منذ عام ١٨٧٩ وهكذا فانها لم تتاخر كثيرا في المانيا لا بحوالي خمسة وثلاثون عاما فقط . كما اهتمت امريكا بهذه المادة وادخلتها ضمن برامجها الجامعية من مطلع القرن العشرين .

وقد جرت العادة – داخل اورقة الكليات الجامعية والمعاهد المتخصصة لدراسة الفن ان تشتمل مقررات منهج هذا الموضوع أي تاريخ الفن على الموضوعات التالية :

١- العمارة : ARCHITECTURE

٢- النحت : SCULPTURE .

٣-الرسوم الجدارية : PAINTING.

٤- الفنون التطبيقية : APPLIED ARTS .

وعادة مايكون هناك تركيز واضح على تطور الطرز الفنية STYLES للفن الاوربي فيما بعد العصور الكلاسيكية .

ولما كنا نحن العرب لسنا احفاد الاوربيون كان الزاما علينا معرفة جذور حضارتهم القديمة التي لاينفكون يتفاخرون بها ولما كنا نحن كذلك اصحاب حضارات قديمة باهرة ليست اقل شأنا ومجدا من حضارة اليونان والرومان ، فعلينا دراسة تاريخ الفن اليوناني والروماني لمعرفة نجاحاتهم وانجازاتهم واضعين في الاعتبار حجم الانجاز الحضاري الشرقي لحضارات العراق وسوريا ومصر القديمة ومدى تاثيره على البدايات المبكرة لكل الحضارات الاوربية .

لقد بدأ الاهتمام الفعلي بتاريخ الفن على يد المؤرخ والفيلسوف الروماني بلينيوس الاكبر (plinius maior) منذ القرن الاول الميلادي عندما خص كتابة (historia naturalis)التاريخ الطبيعي لدراسة الرسوم الجدارية وكذلك النحت .

عندئذ كان من المنطقي ان تكون كلمة فن (art) ومثيلاتها في اللغات الاوربية الحديثة من اصل لاتيني هو art, =art . n. f , artis

اذ احتفظ الاوربيون اللاحقون بجذع كلمة اللاتينية وهو – art بعد ان حذفوا النهاية اللاتينية المعروفة لهذه المجموعة من الاسماء المشهورة في تلك اللغة . وكان هذا هو مدخله الذكي لمحاربة الفن بوجه عام لانه يزيف صورة الواقع ويقدم الينا انموذجا مشوها له .

واذا سمحنا لانفسنا اليوم ان نتسال كما فعل المئات من الباحثين من قبلنا عن ماهية الفن او ماهي الفنون ؟ فاننا لم نجد اجابة شافية واحدة .

والفن سلوك انساني هادف يحمل قيما استاطيقية (جمالية) ويخضع لاسس بنائية وله دوافعة الانسانية.

وهو لغة عالمية لتتخاطب والتفاهم ونقل الافكار والمعلومات والاحاسيس . وهو بذلك مراءة لثقافات الشعوب .

اما مفهوم التاريخ : هو وعاء للتجربة البشرية بكامل جوانبها عبر الزمان والمكان . وهو حلقات متصلة من التفاعلات البشرية على الارض زمنيا ومكانيا وبما ان الفن يمثل المراءة الحقيقية للثقافة فان المفهوم التاريخ يعتبر سلسلة متواصلة الحلقات للاحداث التي يظهرها الفن ويقودنا ذلك الى مفهوم تاريخ الفن .

هو التاريخ البصري الاستاطيقي لتجارب الانسانية ووسائلها في التعبير عن ذاتها او تسجيل انتصاراتها او تحقيق طموحاتها في الحياة . والتاريخ هو الرصيد المتراكم لتجارب الانسان والتي بكشفها وتذوقها وفهمها يتعرف الانسان على الكثير . الذي يسهم في دفعة للتقدم والرقي .

مثال : لاتوجد حضارة واحدة عرفها الانسان الا وكانت وسيلته في التعرف عليها من خلال رموز فنية ابدعها الفنان .

وان فن الانسان البدائي اشارة اليه كهوف (لاسكو) وفيزان) (والتاميرا) وغيرها .

من خلال ذلك امكن تصنيف الحياة القديمة الى العصر الحجري القديم ، العصر الحجري الوسيط ، العصر الحجري الحديث . فالتاريخ هو وعاء التجربة البشرية بكل معانيها ومن خلاله يمكن قراءة الماضي والافادة منه حاضرا ومستقبلا .

وتاريخ الفن تاريخ مرئي للجماليات التي من خلالها يمكن للحياة احداث التقدم .

الفن هو افضل طريقة للتعبير التي توصل اليه الانسان عبر العصور المختلفة . ويمكننا ان نتعرف على حضارات السابقين منذ الاف من السنين ، ونتعرف على الشعوب وجماعات وافراد بعاداتهم وتقاليدهم وكيف كانو يعيشون او يلبسون او ياكلون ، ماهي ممارسات حياتهم اليومية ، كيف كانت طقوسهم وشعائرهم وديانتهم، كل ذلك نتعرف عليه حينما ندرس الفنون التي تركتها تلك الحضارات . فلم يعد أي نشاط انساني بالاستقرار كما عرفت به الفنون سواء كانت عمارة او فنون جميلة او تطبيقية .

والفنون تحكي لنا عن تاريخ الانسان من خلال مئات والاف السنين كما تمدنا بالمعارف والمعتقدات والاخلاق والقوانين والعادات الحالية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية السائدة في عصر من العصور .

ولن نتوصل الى فهم الجنس البشري وتاريخ الانسان على سطح الارض الا اذا سلمنا باهمية وتفوق المعرفة التي يجسدها الفن . والفن موجود في كل مكان في ارجاء المعمورة في شتى المظاهر مستمرا وخالدا يحكي قصة حياة الانسان على هذه الارض . فقد صنع الانسان اشياء تمس حاجته واهتمامة لاضفاء البهجة والراحة على عالمة وحياته اليومية وذلك في صور اشكال ورموز كلغة عالمية لها

ابجديتها واسسها وعناصرها الخاصة لتبليغ معنى او رسالة او هدف ، ويحول الفن في جميع نشاطاته الاساسية ان يحدثنا عن شيء ما حول الكون او حلول المجتمع او البيئة او حول الانسان او الفنان نفسه .

وعالم الفن هو نهج للمعرفة ذو قيمة للانسان والفن الاصيل وراسخ لانه ينبع من النفس البشرية من الارض والمعتقدات والماضي والتاريخ وعندها نقر بان الفن طريقة متوازية للمعرفة بل وانه متميز على سائر الطرائق التي بواسطتها يتوصل الانسان الى فهم كونه وبيئته ومجتمعه ونفسه ، عندها فقط يتاح لنا تقدير اهمية الفن في تاريخ الانسان .

ومادة تاريخ الفنون تزود الطلبة بما يحتاجون اليه من معلومات ومعارف عن الانسانية السابقة وانواع الفنون المختلفة التي يمارسها الانسان منذ زمن سحيق الا انها تنمي فيهم ايضا التذوق الجمالي للفنون وتعلمهم بجانب ذلك عناصر التشكيل والقيم الجمالية التشكيلة كما تثري وتبعث ملكة الابداع الفني عندهم وحب الابتكار .

وعليه فخلاصة دراستنا لتاريخ الفن تتجلى فيما ياتي:

- ان دراسة تاريخ الفن عند تناول حقبة فنية او خصائص منجز فني ابداعي قديم كالعمارة والنحت والرسم و الفخار ...فانه يتناولها جامعا بين الوعي الفني العميق لخصوصية الفن كابداع وموهبة ووسيلة مهمة جدا من وسائل التعبير الانساني اضافة الى التكنيك و الادوات.
- اذا كان التاريخ يبحث في الوقائع و الحوادث الماضية اي اخبار الامم والشعوب و الافراد في الماضي ، ودراسة ذلك الواقع في ضوء مبدأ التاريخية و التي تتطلب النظر الى الاشياء و الظواهر في ضوء الظروف التاريخية المرافقة لنشوئها وتطورهاوهو الوعاء الزمكاني للتجربة الانسانية عبر مراحل يتصل بعضها بالبعض الاخر لينقل لنا ثقافات الشعوب و الامم والفن هو التطبيق العملي للتاريخ اضافة الى مفهومه الفلسفي العميق من خلال فروعه في العمارة و النحت والرسم و الفخاريات و الاختام الاسطونية واللقى الطينية وغيرها.

- فالفن هو المعبر الحقيقي عن التاريخ الانساني ، ولسان حاله فلا يمكن معرفة حضارة شعب وامة بالسرد التاريخي و نقل الاخبار شفاها وتحريرا فقط انما بالمنجز الفني الابداعي باعتباره ليس تمثيلا للواقع وانما خلق لعناصر الحياة والمجتمع والطبيعة.
- تاريخ الفن يكشف عن الظروف و الاسباب التي بموجبها انجزت الابداعات الفنية عبر التاريخ و الذي يكشف الهوية و الثقافة و المعارف وعلوم الامم.
- اما بخصوص وادي الرافدين فقد تميزت فنونه بارتباطها الوثيق بالتحولات التاريخية تلك التي اعطت صفة الحيوية لحضارة العراق كونها تحولات وتقلبات عنيفة وقوية سوا الطبيعية المتمثل بالكوارث او السياسية المتمثل بالحروب الداخلية و الاحتلالات الاجنبية، فضلا عن الفكر الديني ذو السمات الخاصة الذي انسحب كل ذلك على الفنون واساليبها التشكيلية في العمارة والنحت و الاختام الاسطوانية و الفخاريات و الجدارايات.

- فالاسلوب السومري ذو السمة الدينية رغم طول فترته تغير بعد الوجود الاكدي وحضوره الفاعل فانتقل الفن من روحيته الدينية الملتزمة الى الرؤية الواقعية والموضوعية للواقع و السلطة و الحكم، اما الاسلوب البابلي الانيق الذي تميز بالتعامل مع السطوح و الجداريات والقصور اضيفت اليه تعبيرية وعنف الرؤية التشكيلية في الوجود الاشوري.

❖ فن الكهوف والفن البدائي

كلّما وقفنا أمام مشهد من مشاهد الفن البدائي أو تفرسنا أثرا من آثاره ينتابنا شعور بالدهشة أمام نتاج إنساني يجمع بين الإيحاء للطفولة الصافية وبالغ النضج.

و بما أن الفن هو من أولى النشاطات التي زاولها الإنسان، و التي تجمع بين كل ما هو يدوي و فكري و روحي، فقد لازم مصير الإنسانية التي عبرت من خلاله عن طموحاتها و آمالها و ترجمت به أفراحها و أحزانها و سجلت به تجارب نجاحاتها وعثراتها ومخاوفها.

هو سجل لبدايات الحضارات و تطوراتها و شاهد على أمجادها و أفولها. فلو نظرنا إلى التراث الإنساني لوجدنا زخما هائلا من صور و مشاهد وأدوات مختلفة من بصرية و سمعية و حركية اقترنت بحياة المجتمعات ولازمت الجانب المادي منها و الروحي، ما يتعلق بالحياة و ما يصبو لتخليدها.

وقد يكون اهم ما يعنينا في تلك البدايات التماثيل و الصخور المنقوشة و جدران الكهوف المرسومة.

رغم انه لا يمكننا تحليل الفن البدائي ومعطياته تحليلا "منطقيا " ولكن، من يقول أن الفن يخضع لمنطق أو عقلانية؟ فالمنطق نفسه تختلف مفاهيمه حسب الظروف و البيئات! و الفن كيفما أريد له أن يكون، يبق دائما الأمر يتعلق بتلك الظاهرة "الميتافيزيقية"، روحانية أو سحرية أو دينية أو سياسية أو تربوية أو غيرها من الأدوار التي لعبها الفن في حياة الإنسان عبر التاريخ.

و قد يتساءل الانسان: كيف تسنى للإنسان في العصور الغابرة أن يبدع كل تلك الصور و الأشكال التي تبهرنا اليوم؟ هل كان الفنان البدائي رجلا أم امرأة أم طفلا؟ قد يذهب البعض للتساؤل هل كان الإنسان البدائي أقل ذكاء أو أكثر بلادة...؟ كيف ؟ و هل تجوز المقارنة؟ وما هي المعايير التي يمكن اتخاذها في تحليل ثم فهم عقلية الإنسان البدائي؟ و ما أدرانا إن كان الإنسان البدائي قد توفر على إمكانيات خارقة على مستوى الإدراك و التواصل خصوصا مع الطبيعة و ربما مع ما فوق الطبيعة؟

أسئلة لا يمكن الحسم في الإجابة عنها. فبغض النظر عن المكتسبات التكنولوجية ووسائل الرقي والتطور (و التي هي نتيجة لسلسلة من التطورات و الإكتشافات التي شاركت فيها الإنسانية جمعاء، و أولها إنسان الكهوف ، فسكان الكهوف كانوا أولي المتحضرين و قد خلق فيهم الفنان الأول.

كان حاذقا فسوى شكلا من عظم، أو وشم على جلد؛ طائرا أو غزالا أو فيلا أو أسدا أو زهرة.
عند رجوعه من الصيد كان يأخذ قطعة خشب ويعطيها شكل حيوان ، يعجن طينا على شكل تمثال أو يأخذ قطعة عظم مسطح فينقش عليها خيال كائن ما.
نشوة عارمة تجتاحه عند رؤيته لوجوه ساذجة تطل على منجزاته؛ ينتشي هو نفسه لهذا العمل الذي يخلق تفاهما مبهما بينه وبين الآخرين، بينه وبين عالم المخلوقات و النباتات التي يتعلق بها لأنها حياته.
الكلمة أو الإشارة قد لا تقوى على وصف الحيوان الذي يصادفه في الغابة والمطلوب خشيته أو إيجاده فيرسخ هيئته على عظم أو صخر ببعض الخطوط الموجزة. و قد تكون إحداهن قد لمست في تكوينها و في وظيفتها البيولوجية تلك الإسقاطات الكونية لدورات الشمس و القمر و تعاقب الفصول، فرسخت برموز و إشارات ما عبر عن حياتها الداخلية المتعلّقة بالخلق و الرمز للمقدس الذي لا تتسنى رؤيته للعين المجردة.
ولد الفن في حضرة الفنان البدائي ، و للإلمام بخصوصية هذا الفن لا بد من الإحساس بعقلية هذا الفنان، ولهذا يجب على الباحث أن يستشعر الخواص الإنسانية و الفطرية و أن يزيل من ذاكرته ما تراكم من أحكام و مقارنات سهلة، و أن يكشف عن الأقنعة الزائفة التي أُلبست تاريخ الفن و البشر عبر الزمن، في محاولة استكشاف ما هو مشترك و ثابت في النفس الإنسانية.
لقد خلد فنان العصور البدائية ملاحم من بيئته وترك بصمات تطور حضارته على مدى آلاف السنين؛ و على الرغم من أنه يستحيل متابعة هذا التطور خطوة خطوة فان تنوع المشاهد و الصور، ووفرة الأدوات و الأشياء التي تعد بالآلاف و في بعض الحالات بالملايين (كرؤوس الحرب و أدوات من حجر الصوان المصقول) تجعلنا نؤمن بأن هذا التطور قد قام على الإستمرارية و الإلحاح على الحاجة لهذه الإستمرارية.
فبالغريزة و الطموح المتقد و حب الاستطلاع، والحاجة للمقدس و الشعور به، والمزاولة اليومية خلقت الحضارة. الحضارة، تلك الظاهرة الشاعرية التي بفضل المآثر التي تشيد و تخلف ورائها يمكن تقديرها و الإنبهار بقيمة عظمتها؛ وهذا ينطبق تماما على الحضارة البدائية التي شيدت لحياتها و عملت على تطوير أساليب العيش ، ثم نمت شعورها الروحي و الديني منذ بزوغ فجرها إلى أواخر عهودها، حيث استمرت على مناولها في أماكن عديدة إلى حدود القرن الثالث ق.م.

❖ فن الكهوف:الحافز، النمط والجمالية

نحن هنا بصدد إضفاء قراءات بعقلية القرن الحالي على تصوير يتراوح عمره بين ١٠٠٠٠ – ٧٠٠٠٠ سنة .

ما الأسباب التي دفعت هؤلاء البشر إلى إنجاز تلك الأشكال و الألوان ؟ الاجابة لازالت مجهولة، و النظريات تتوالى و تتضارب دون أن تنال واحدة منها قبول الجميع. لكن و بكل ما يوحي إليه كل ذلك الإرث الشاسع في الزمان و المكان، لا يسعنا إلا أن نتكلم عنه و نصنفه على أنه فن، بل و في نظرنا هو أب الفنون.

إذن يتشكل الفن البدائي من تلك التمثيلات "الصورية" المنقوشة أو المرسومة على الجدران او المشكلة من عظام أو طين أو حجر أو عاج . وهذه التمثيلات يمكن اعتبارها التجلي الإنساني الثقافي الوحيد الذي استمر بدون انقطاع ما يزيد على سبعين ألفية ليصل إلينا على أشكاله المختلفة و بكميات هائلة غطت مجموع الكرة الأرضية . فذلك العدد الهائل من المواقع الأركيولوجيا((Archaeology : أو علم الآثار [هي فرع علم الإنسان الذي يركز على المجتمعات والثقافات البشرية الماضية وليس الحاضرة . وتدرس (تحديداً) المصنوعات الحرفية كـ"الأدوات ، الأبنية ، الأوعية ..." أو ما بقي منها ، والتي استمرت بالتواجد للوقت الحاضر) . المكتشفة و الخاصة بالفن البدائي لم ينحصر في مكان بعينه ولم يقتصر على عنصر أو قبيلة أو لون من الأجناس البشرية.

اكتشفت آثار فن ما قبل التاريخ لأول مرة عن طريق الصدفة في اسبانيا أواخر القرن التاسع عشر، وكان ذلك الاكتشاف بمثابة الصاعقة للباحثين في هذا المجال آنذاك. فأمام جداريات فنية حقيقية كالتي اكتشفت بكهف الألتميرا Altamira سنة ١٨٧٩ من طرف طفلة ذات الخمس سنوات كانت ترافق أباها و هو مزارع مولع بالبحث في الآثار يدعى ساوتيولا والذي أعلن اكتشافه هذا سنة ١٨٨٠ و لم يتلق سوى ازدراء و استخفاف علماء المتحجرات، والسبب هو أن الأمر كان يبدو شيئا غير منسجم مع ما تصوروه عن عقلية و معارف أولائك البدائيين.

و قبل أن يعترف العلماء بتواجد شيء اسمه فن ما قبل التاريخ، استهزئ الكثير منهم ممن حاول التنبيه إلى أهمية تلك الاكتشافات، بل و منهم من نعتهم بالاحتيال و الغش كما جرى مع ساوتيولا الذي أمضى بقية حياته محاولا جلب الاهتمام إليها ، و لم يرد الاعتبار إلى اكتشافه إلا بعد عشرين سنة من وفاته، أو خوان فيلانوفا Juan Vilanova y Piera الجيولوجي الشاب الذي حاول الدفاع عن ملف ساوتيولا دون جدوى إلى حين اكتشاف كهف لاموط La mothe سنة ١٨٩٥، ثم توالت الاكتشافات في أوروبا و خصوصا في فرنسا، ثم في ستينيات القرن العشرين بشمال افريقيا و الصحراء و غيرها .

وعلى إثر اكتشاف كهف لاسكو Lascaux بفرنسا سنة ١٩٤٥ ، تسنى الوقوف على أقدم الآثار المكتشفة حتى ذلك الحين فبادر علماء المتحجرات إلى وضع تسلسل تاريخي على ضوء ما تواجد لديهم من المعلومات. كما انبثقت عن ذلك العديد من النظريات لتصنيف الفن البدائي:

١- نظرية الفن لأجل الفن: وهي تُصور البدائيين "كمحبين للجمال" كان همهم اقتفاء الحسن، و المتعة. لكن تواجد "الأروقة " في جحور مظلمة و على بعد مئات الأمتار من مداخل المغارات يجعل تصور رسم تلك الجداريات لهدف زيني أمرا باهتا.

٢- نظرية الطوطمية :و مؤداها أن كل عشيرة يقابلها حيوان طوطمي يكون محط تحريم و حضر غذائي بالخصوص و في بعض الأحيان يخص بالعبادة و التقديس. و يَشْرِك هذا الطرح العديد من الحيوانات المختلفة التي لا تتطابق و المكتشفات الأركيولوجية. و من جهة أخرى هناك العديد من الرسوم تمثل حيوانات و هي مصابة بجِرَب أو حاملة لجروح، الشيء الذي يتنافى و مسألة تحريم الحيوانات الطوطمية. و هكذا تبقى هذه النظرية متخلفة بسبب تنافر و تباين "أحكامها".

٣- نظرية القدرة السحرية:وتفترض أن تمثيلات الحيوانات أو مشاهد الصيد كانت كفيلة بمساعدة إنسان الكهوف في البحث عن قوته. و ذلك لظنه أنه بإسناد قدرة خارقة إلى الصور يستطيع أن يطرد الأرواح الخبيثة و يضمن بذلك صيدا وفيرا. هذا الافتراض يتناقض و تواجد العديد من تمثيلات لحيوانات و عناصر و أشكال لا علاقة لها بالصيد.

٤- النظرية البنيوية :هي نظرية فتحت منظورا جديدا بسمات "بنيوية"؛ و تذهب إلى أن وراء الفوضى الظاهرة في الفن ألجداري للكهوف، هناك نسق و بنية يمكن إظهارها بالإحصاء. و انصرف المنظرون إلى أن هناك بنية للكهف في مجمله بتمثيلات مدخله و قعره، وتنظيم الجدارية بتشكيلات مركزية و أخرى محيطة و خصوصا ازدواجية أساسية " ذكر/ أنثى" و المتمثلة بالزوج الرمزي "بيسون – ثور بري /حصان. ولقد استرسل الكثير من الوقت دون أن يتم استنتاج بداهة البنية تلك.

٥- الشَّمَانية: وتَعْتبر الكهف مكان اجتيازٍ بين عالم البشر و العالم الموازي. بهذا المعنى تكون المغارة بمثابة المحراب الذي يقوم فيه "الشامان" بالدخول في"حضرة" أو"حِلم" لأجل إنعاش الانسجام بين الإنسان و الطبيعة. وبذلك تذهب هذه النظرية، التي تضفي بعدا روحانيا على فن الكهوف، إلى أن تلك التمثيلات تخلق محيطا عجيبا أشبه منه بالديني.

وتبقى هذه النظرية جد منتقدة من طرف بعض علماء ومؤرخي عصور ما قبل التاريخ الذين يرونها عبارة عن خيال طافح. لكنها أيضا النظرية الأكثر جدالا اليوم، و الأكثر رد اعتبار لدور الفن كحافز اجتماعي و نتاج إنساني اكتسى صبغة كونية على مستوى " رموز الأفكار " و التقنيات و الموضوعات.

ظهور الفن ألجداري هو الحدث الرئيسي لفن العصر الحجري القديم، و حسب النظريات الكلاسيكية، بدأ هذا الفن منذ ٣٥٠٠٠ سنة ليتطور شيئا فشيئا إلى حدود ١٣٠٠٠ قبل الآن ليبدأ بعدها في الانحدار ثم الانقراض تماما قبل ٨٠٠٠ سنة. فطلقوا العنان لتصوراتهم المتأثرة بنظرية التطور، وذهب بعضهم إلى أن هذا الظهور كان بداية انطلقت من الصفر وكانت

عبارة عن خربشات و رسومات ساذجة و موجزة . و قد بقيت هذه النظرية تؤخذ بعين الاعتبار و تغذي كل ما يدخل في نطاق تصور لثورة فنية أوروبية لإنسان الكهوف. لكن الأمر سينقلب تماما عند اكتشاف كهف شوفي Chauvet سنة ١٩٩٥ الذي يحتوي على جداريات ورسوم هي من أقدمها على الصعيد الأوروبي ، و من أكثرها إعدادا و تقنية؛ الشيء الذي سيوضح تماما أن إنسان الكهوف قبل أكثر من ٣٥٠٠٠ سنة كان يمتلك تقنية كبيرة في تخطيط الرسوم و إعدادها. ثم سيأتي اكتشاف بكهف بُلُمْبُسBolombos بجنوب أفريقيا سنة ٢٠٠٢ لكُتلتين من مادة مُغرة ، نقشت عليها خطوط هندسية منحدرة و متوازية يعتقد أن تاريخ نقشها يرجع إلى قبل حوالي ٧٧٠٠٠ سنة ، الشيء الذي يحتم إعادة النظر في أطروحة الثورة الأوروبية الرمزية و الفنية ، صور إنسان الكهوف بيئته، و بالأخص الحيوانية منها؛ كما شكل رموزا و علامات ملغزة. و تنقسم المواضيع التي تطرق إليها في الفن ألجداري إلى ثلاثة أصناف:

١ – جماعات الحيوانات، وتشكل أغلب التمثيلات التي أبدعها فنان الكهوف و قد أخص بها الحيوانات التي كانت تحيط به و ليس فقط تلك التي كان يصطادها أكثر؛ و على العموم فمعظم هذه الحيوانات و الأكثر ها شهرة و أحسنها إتقانا وتنفيذا الحيوانات آكلة العشب. هناك الحصان و البيسون، ثم الماموث و الثور البري فالأيل، و نادرا ما رُسمت حيوانات كالأسود و الدببة؛ ونادرا جدا الأسماك و الطيور. و في بعض الأحيان شكلت أشياء تثير الدهشة، بل وتثير تحفظ العلماء في الإعلان عنها كالرسم الذي يمثل أحد الديناصورات في مواجهة مع ماموث بكهف برنفال بفرنسا Bervifal ويلاحظ أنه قليلا ما رسمت مشاهد مكتملة كقطعان في مشهد طبيعي مثلا. كما يوجد بعدد جد ضئيل رسوم لحيوانات خيالية اليونيكورن أو أخرى خرافية نصف حيوان نصف إنسان مثلا.

٢– التمثيلات البشرية، وهي جد قليلة، ومن الملاحظ أن رسم الإنسان قد تم في الغالب بطريقة موجزة، ودائما بمرافقة حيوانات أو مختلطا بها. و ما يمثل أكثر العنصر البشري من رسومات إنسان الكهوف رسم الأيادي عن طريق طليها بمادة صابغة ثم طبعها على السند ألجداري، أو بوضع اليد على الجدار ثم نفث سائل ملون من حولها عن طريق الفم، للحصول على شكل سلبي لليد.

أعدت هذه الرسومات في أغلبها بتقنية عالية، توحي في عمومها لنمط معين يمكن أن يكون قد بلور قواعد في التكوين وتقنية المواد و الأدوات المستعملة، تختلف حسب الحيز الجغرافي و الزمني.

٣ – رموز وإشارات وعلامات، نِقط، خطوط منحدرة أو مستقيمة أو عشوائية، أشكال هندسية أو تجريدية من دوائر و مستطيلات و تعرجات، غطت كل حقب ما قبل التاريخ، رسمت أو نقشت أحيانا إلى جانب حيوانات، أو منفردة و تغطي أحيانا مساحات مهمة قد تصل إلى بعض المترات المربعة. وهناك العديد من الهيئات التجريدية من "رموز أفكار" قد تكرر تشكيلها

بصفة جد متشابهة في أكثر من منطقة في العالم رغم فارق الزمن و المسافات... وقد أهمل الفنان البدائي كل ما يتعلق بالبيئة النباتية لأسباب لا يمكن الإحاطة بها.

أما فن النحت و الحفر فقد تطرق لنفس المواضيع المذكورة مع بروز كبير لتماثيل ما يسمى بالفينوسات و هي تماثيل أنثوية في هيئات جد متباينة.

ويطفح سجل الفن البدائي بأشكال وألوان من التقنيات والإبداعات المختلفة من رسم و نقش وحفر و نحث و تجسيم، استعملت في إعداد هيئات فنية شتى من جداريات ضخمة إلى مجسمات صغيرة جدا مرورا بحلي و أسلحة و مصابيح...

و قد استعمل الفنان البدائي مواد خام و ابتكر أدوات و وصفات في إعداداته الفنية المتنوعة. فلكي يرسم كان عليه أن يحصل على مواد ملونة، ثم بعد ذلك كان عليه سحقها ثم خلطها بمواد سائلة مثبتة؛ و كان عليه إعداد أدوات قاطعة لحفر و شق الحجر و العظم أو أخرى لتحديد الشكل و طلي المواد الصابغة...

هذا و مم لا شك فيه أن وراء فعل الفن البدائي يكمن وعي بهذا الفن، وذلك يظهر على أكثر من مستوى، من الناحية التقنية و ما تتطلبه من إعداد للمواد الخام و الأدوات و اختياره للسند الملائم و استغلاله لنتوؤات أو تصدعات لإظهار نوع من البروز للهيئات التي مثلها كانت رسما أم حفر . ثم على مستوى الأشكال التي عبر من خلالها عن مخيلته، ولكي يعبر الإنسان عن مخيلته، لابد أن يكون واعيا بهذه المخيلة.

تُكمن أهمية الفن البدائي في كونه الفعل الحضاري الوحيد الذي وصلنا حاملا معطيات ثقافية تخص المجتمعات الإنسانية الغابرة، وهو لا يعطينا صورة عن محيط وبيئة تلك المجتمعات فحسب، بل يخول لنا و بقدر كبير تصوُرَ مفاهيم و طريقة الإنسان البدائي في تعامله مع تلك البيئة وذاك المحيط. فكل ما نشاهده من تمثيلات و رسوم و نقوش و حفر و نحت ... إنما هي رموز، وكما يبين تاريخ الفن و الأنتروبولوجيا، فإن أي تجسيم لا يطرح بالصدفة، فشكل حصان أو بيسون ليس بالضرورة مرآة للشكل الواقعي بقدر ما هو مفهوم "تشكيلي" لما يمثله ذاك الحصان أو ذاك البيسون، في بيئة معينة ألا و هي بيئة الإنسان البدائي. إنه حدث ثقافي حضاري، نمط إبداعي تجلى في استغلال "المادة" و" الأداة" في حيز التشكيل لأجل التعبير عن موطن الخيال، و بهذا المعنى تشكل تلك المنجزات الشكل الوحيد الذي وصل إلينا عاكسا "إيديولوجية" اجتماعية، خاصة بإنسان الكهوف. و من ثم دليلا قاطعا على عالمية الإبداع و إقناعا على أن عمر هذا الإبداع من عمر الوعي الإنساني.

الاطوار الحضارية الاولى في حضارة العراق القديم

ان الفن التشكيلي للعراق القديم بكل انواعه (النحت المدور و البارز والرسوم الجدارية و الدمى الطينية و الحرف اليدوية ..الخ) هو فن متنوع و مزدهر في معظم مراحل العراق القديم ، ورغم ما سلب ونهب من نتاج التاريخ القديم و الحديث لقد استطاع الاثاريون الحصول على كميات لا بأس بها من الاختام و التي تحمل طابعا صوريا تمثل المراحل التاريخية المختلفة للعراق القديم ، وبما ان الفن المؤشر الأكثر مصداقية لمقاييس الجمال . وهذا ما جعلنا ان نأخذ فنون ونتاجات الفخار أكثر من غيرها كونها أعطت مصداقية الدلالة على التبدل والتغير في الوعي الاجتماعي، ((والشيء الأكيد، في الواقع ان النشاط الفني قد التزم بعضاً من المبادئ التي تؤلف في مجموعها نوعاً من الحقائق البديهية.)) وهذا ينعكس على أي تغيير أصاب الفنون الرافدينية وخصوصاً البدائية أو الأولى منها، ثم ان هذه الأدوار تطورت إلى ان وصلت فخار سامراء الذي بدأ يعكس الوعي الجمالي في فتراته الأولى، وتشير كل الآثار المكتشفة في المواقع العراقية القديمة بصناعات فخارية سوف نوجز تلك الصناعات وحسب تسلسلها الزمني:

طور تل حسونة :-

يحتل هذا الطور اهمية عظيمة في خارطة تاريخ الفن العراقي القديم ، حيث شمل هذا الطور امتدادا يسبق مرحلة التدوين أي عصر ما قبل الكتابة ، نشأ مع اولى القرى الزراعية في شمال العراق(جرمو) ، وهذا الطور شهد التأسيس الاول للبنات بنية الفكر الحضاري .

جاءت تسميت هذا الطور نسبة إلى تل حسونة والذي يقع جنوب الموصل يعود تاريخها إلى حوالي (٧٠٠٠-٥٠٠٠)ق.م، سكان هذا الموقع تركوا لنا ارث متنوع بين الاسلحة الصخرية و ادوات عظمية وانيات فخارية تميزت باحجامها الكبيرة إلى حدا ما قليلة العمق محززة بعضها مدلوكة دلكا شديدا فظهرت وكانها مصقولة ولماعة ، زخارفها مستوحاة من الاشكال الهندسية (الخطوط المنكسرة و المتوجة و المستقيمة و شكل المثلث) و النباتات المحورة وربما نستطيع ان نقول ان زخارف تل حسونة بدايات لما يشبه الفن التجريدي ، اما الوانها فتنوعت بين البرتقالي او البني او الاسود، وتقنية زخرفتها تعتمد على الحزوز .

طور سامراء :-

وجدت اثار هذا الطور تحت دور السكن في العصر العباسي اثارها عبارة عن اواني فخارية و تاريخها (٥٠٠٠) ق.م ، واذا كان تل حسونة هي بدايات صناعة الفخاريات فان سامراء تشير إلى تقدم واضح في التقنية و الحرفة في الصناعة فتطور الجمال الفني للانية الفخارية ، واصبحت الزخارف اكثر غنى وترف مما يؤكد التطور الفكري الجمالي .

زخارفها اعتمدت الاشكال الهندسية (من تقاطع الخطوط عمودية و افقية ومائلة للتطور إلى تصاميم هندسية من مربعات و مستطيلات ومعينات مشكلة بانطقة) وفي مراحل متقدمة انتقل إلى زخارف الاشكال البشرية و الحيوانية و النباتية ضمن وحدات هندسية مع اختزال التفاصيل الدقيقة، اما الوانها فيغلب عليها اللون الاسود و البنفسجي و البني في حين تميل الارضية إلى الخضرة بشكل عام ، الا انه في اواخر هذا الطور ظهرت الوان متعددة جديدة كالاحمر و الاصفر و على ارضيات برتقالية و بيضاء بدلا من اللون الواحد ، اما المضامين لهذه الزخارف فكانت غنية بالمعاني و الرموز التي تشير إلى فلسفة الحياة برمتها فهي تعبر عن امال الشعب و مخاوفه بكل فئاته ، فالمعزات الدائرة حول بركة او شجرة والصليب المعقوف الذي تشكله النسوة الاربعة مع شعورهن المنسابة في الهواء ، انما تقصد في كل وضوح إلى ما يرمز إلى الحياة الدائمة المتحركة في كل المخلوقات البشرية و الحيوانية و النباتية في حلقات او مراكز لا نهاية لها .

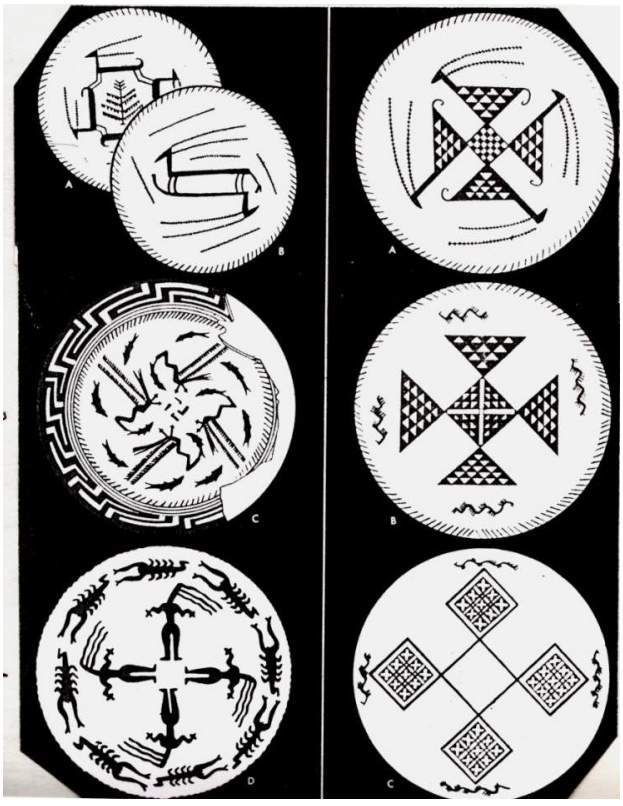

طور تل حلف :-

وجدت اثار هذا الطور بالقرب من منبع نهر الخابور احد افرع نهر الفرات شمال العراق قرب الحدود السورية تم اكتمال التنقيب فيها عام ١٩١٣ اثارها عبارة عن فخاريات وفي مراحلها المتاخرة تم اكتشاف طرائق صنع المعادن حيث اصبحت الاوادت النحاسية تستخدم في هذا الطور و تاريخها (٤٠٠٠) ق.م ، ابداعاتها تتسم بالجرأة فالنماذج الفخارية عبارة عن دمى اشبه بالتي وجدت في قرية جرمو اول قرية في العالم ولكن هذه الدمى اتسمت بجلوسها القرفصاء في الاغلب و اجسامها صيغت بكتل كبيرة وصدور مائلة إلى الاسفل اما الراس فيشير إلى مجرد شكل هندسي اقرب إلى الكرة غير واضحة الملامح ربما لارتباطها بالالهة الام او لكون هذه الدمى ترتبط بطقوس دينية لها خصوصية الهية مقدسة .

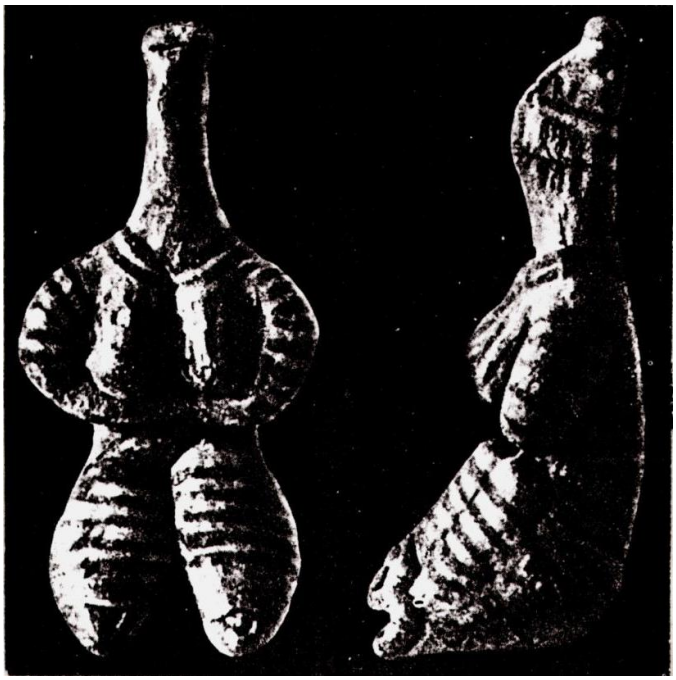

اما زخارف الانيات الفخارية اعتمدت الاشكال الهندسية (مثل الدائرة و المثلث) وبعضها مزين بزخارف حيوانية بخطوط بسيطة الا انها ناطقة بالحياة ورسمت الظباء بقوائمها الاربعة و هي متحفزة اذا ترفع اذانها إلى الاعلى وكذلك الطيور الفزعة التي تستعد للطيران ونفذت اجنحتها بشكل اختزالي فهنا ميل في هذا الطور إلى الاختزال و التجريد ، ويمتاز هذا الطور بظهور الفخار المتعدد الالوان (الاصفر و الاحمر و البني و الاسود و ارضياتها تميل للون الوردي المائل للاحمرار) وكان بعضها مصقول صقلا جيدا أي لماع وتمتاز بحافاتها الرقيقة .

طور العبيد :-

بدأ عصر العبيد عند بعض المؤرخين في حدود (٣٨٠٠) ق.م واهم مراكز (اريدو) استقرت في جنوب العراق عثر في هذه الحضارة مجموعة من المخلفات التي تعود إلى العصر الممهد للكتابة من اهم ما وجد في هذه الحضارة فخاريات تتميز بصلابتها لشدة حرقها ولونها في الغالب اخضر مصفر، كما انها امتازت بانتظامها و اتقانها وذلك لكونها صنعت بالدولاب ولم يتم تشكيلها باليد ، وتقنية الدولاب زادت من كمية الانتاج اضافة إلى تعدد الاشكال و الانواع كالصحون و الكؤوس ... الخ ، اما زخارفها اكثر تجريدا مما سبق بالاعتماد على الاشكال الهندسية غير التصويرية امثال المعينات و المثلثات والمربعات وانصاف الدوائر ، كما و استخدمت الخطوط العمودية و الافقية و الحلزونية و المتعرجة و المنكسرة في تكوينات زخرفية ، وقد تؤلف هذه الخطوط حقولا تحوي بينها رسوما مبسطة لاشكال ادمية او حيوانية او نباتية ذات تفريعات ولو على نطاق محدود.

كما وجد دمى فخارية تختلف اختلافا كبيرا في الاسلوب و الطراز عن دمى حلف و جرمو(حسونة) ، فقد تميزت دمى العبيد بانها واقفة دوما و رشيقة وتمسك الاناث بطفل احيانا وجسدت هذه الدمى عارية

وزينت باستخدام التكفيت بحبات صغيرة من الفخار او القار وضعت على الاكتاف كانها اشارة إلى نوع من الوشم و الحلي ، ويبدو ان النحات قام بتكوين هذه الدمى ولم يجرؤ على تنظيم الرأس بشكل واقعي ، بل انه راح يطلق العنان لخياله للخروج بالشكل الادمي عن واقعه ، فاقترب إلى وجه اقرب إلى الضفدع او الافعى متوجة بشعور صناعية مثبته بالقار ويصعب اطلاق تسمية الالهة الام على هذه التماثيل و الدمى وذلك لوجود دمى اخرى في ذات الموقع و بنفس الطراز الا انها لرجال عراة ، مما زاد مشكلة معرفة دور هذه الدمى ، فلربما تمثل الهة او عفاريت ذات طبيعة طقوسية معينة.

وعلينا ان نوضح ان حضارة العبيد ام الحضارات في العراق القديم انتشرت في وسط و جنوب العراق وجميع المدن السومرية التي شيدت فيما بعد في عصر فجر السلالات شيدت فوق اطلال سكنى حضارة العبيد .